نظرات في سورة يوسف (3)

نحن نقص عليك أحسن القصص

طارق مصطفى حميدة

قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم: {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين}، والقصص بمعنى الاقتصاص أي طريقة القص والتتبع والرواية، أو القصص بمعنى المقصوص.

وهنا تثور عدة أسئلة: ما معنى أن قصص القرآن أحسن القصص؟ ولماذا كان قصص القرآن هو أحسن القصص؟ وما علاقة أحسنيته بكونه موحىً به على محمد صلى الله عليه وسلم؟ وهل في تصدير قصة يوسف بهذه الآية ما يشير إلى أنها أحسن قصص القرآن؟

الحسَن يأتي بمعنى الجميل، كما يأتي بمعنى الجيد النافع، وكون القرآن أحسن القصص يعني أنه أحسنه وأجمله شكلاً، وأجوده وأنفعه مضموناً، ولا عجب في ذلك فمُنزّله هو الله تعالى:{ نحن نقص ... بما أوحينا إليك هذا القرآن } وهو أحكم الحاكمين والأعلم والأخبر بما يصلح عباده.

فقصص القرآن أحسن القصص لغة وبلاغة وأسلوب قص، وهو أحسنها غاية وموضوعاً ونفعاً وفائدة، وقصص القرآن، كما القرآن نفسه، لا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء والحكماء، ولا تنقضي عجائبه، ولا تنضب معانيه ولا فوائده؛ {قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً}.

فأما أن قصص القرآن أحسن القصص؛ فلأنها ترشد إلى أحسن القيم والمعاني والأخلاق والمبادئ والأحكام، ولأنها في غالبها توجه إلى دور الإنسان على هذه الأرض ووظيفته وترشده إلى الدار الآخرة، وأبطال هذه القصص ونجومها هم الذين أنعم الله من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وهذه القصص، حتى وهي تتحدث عن الشر والأشرار، فإنها تعرضه لا بالطريقة التي تروج الشر وتحث عليه، خلافاً لكثير من الأدباء الذين يوصفون بأنهم واقعيون، حيث يعرضون الانحراف بطريقة مقززة مقرفة تروج له وتدعو إليه، وبأسلوب يوحي بأن للشر قوة لا سبيل إلى مواجهتها فضلاً عن قهرها.

والذين تنبهوا إلى إمكانية أن تكون قصة يوسف هي أحسن قصص القرآن، ذكروا أنها، وخلافاً لسائر قصص الأنبياء، فإن غالب شخوصها قد آل أمرهم إلى الخير، كامرأة العزيز وإخوة يوسف، فضلاً عن النبيين الكريمين، فيما تنتهي كثير من قصص الأنبياء عادة بإهلاك الكفار.

وفي خطاب الله تعالى لنبيه أنه يقص عليه أحسن القصص {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين}، ما يشير إلى أن المستهدف الأول بقصص القرآن جميعه، وهذه القصة بالذات، هو محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يأتي المؤمنون في زمن النزول، ومعهم الكفار، ثم سائر الناس إلى يوم القيامة؛ ولقد سبق في سورة هود قوله تعالى: {وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين}، وجاء في ختام سورة يوسف: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون}.

إن أحد أغراض القصة القرآنية هو تعزيز البرهان وترسيخ الإيمان بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، كما يتضح من قوله تعالى في ختام السورة: { ما كان حديثاً يُفترى}، ليعزز ما جاء في مطلعها من أنه لا علم لمحمد ولا لقومه بهذا القرآن فإنه كان واحداً من جملة الغافلين عن هذا القصص، ما يؤكد ربانية مصدر قصص القرآن الكريم:{ وإن كنت من قبله لمن الغافلين}.

إن كل من يقص قصة فإنه يهدف من ورائها إلى التأثير في الفكر والقناعات والسلوك، وبالتالي فالغاية من قص أحسن القصص على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، أن يسلك أحسن السلوك، وإذا كانت قصة يوسف قد انتهت باجتماع الشمل وصلاح الإخوة واتباعهم أخاهم النبي، فإن السورة توجه الرسول عليه السلام أن يكون كل تفكيره وتخطيطه وسعيه، من أجل الوصول إلى ذلك اليوم الذي يهتدي فيه قومه، ويجتمع شمله بإخوته، ويصبحوا وإياه في مركب واحدة، وقد كان عليه الصلاة والسلام، كما أراد له ربه؛ فإنه لم يرض أن يُطْبق ملك الجبال الأخشبين على أهل مكة، أملاً في أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله تعالى، وعفا عن قريش يوم الفتح متمثلاً بأخيه يوسف حين عفا عن إخوته، عليه وعلى جميع الأنبياء أتم الصلاة والتسليم.